

ظاهرة الحنين عند صاحب (العقد الفريد) ابن عبد ربه الأندلسي دراسة أدبية في البعد الإنساني

أمل شفيق العمري*

ملخص

يسعى هذا البحث إلى الكشف عن ظاهرة الحنين في شعر ابن عبد ربه الأندلسي (ت328 هـ)، ذلك أنه ولد ونشأ وعاش في الأندلس وحنَّ إلى المشرق وحياة المشرقين! بخطوتين أولاهما: الوقوف على حياة الشاعر للكشف عن أبرز المؤثرات التي ساعدت في إبراز هذه الظاهرة عند ابن عبد ربه الأندلسي، ثم انتقلت الدراسة لتتناول ألفاظ الحنين في شعر ابن عبد ربه واحدة واحدة فوفقت على المعنى الاصطلاحي واللغوي للحنين وقررت ما بين الحنين والغربة والاعتراب ثم عرضت لأمثلة مسحية لشعر ابن عبد ربه الأندلسي مستجلية هذه الظاهرة من خلال شعره.

وقد خلص البحث إلى أن ألفاظ الحنين ومضامينه التي تمثلت بـ (الحنين إلى الأبناء، الحنين إلى المرأة، الحنين إلى مرحلة الشباب، الحنين إلى الأطلال، الحنين إلى الحرب، الحنين إلى الروح المشرقية، والحنين إلى الخمر، والحنين إلى الطرب).

قد شكَّلت حضوراً لافتاً في ديوان الشاعر حتى كوّنت بمجموعها سمة أسلوبية و لازمة تعبيرية معنوية واضحة في شعر ابن عبد ربه الأندلسي.

الكلمات الدالة: الحنين، ابن عبد ربه الأندلسي.

المقدمة

بالمحور الاستبدالي الذي يشير إلى علاقة العنصر المائل في الجملة بالعناصر الغائبة عنها والمرتبطة بها على نحو ما، أما نظم الكلمات المختارة في نسق متصل فهو يعتمد على المحور السياقي الذي يشير إلى تجاور العناصر المختارة طبقاً لقوانين التركيب" (فضل، 2002م).

وقد شكَّلت ألفاظ الحنين ومضامينه حضوراً لافتاً في نصّ الشاعر حتى كوّنت بمجموعها سمة أسلوبية و لازمة تعبيرية معنوية واضحة في الديوان. ففي الغزل حنَّ ابن عبد ربه إلى المرأة والأطلال وعهد الشباب والخمر والطرب واللهم. وفي الزهد حنَّ للدين والتوبة، داعياً إلى ترك ملاذ الدنيا فكتب "المحصّات". وفي الرثاء حنَّ لأبنائه، فبث مشاعر إنسانية صادقة ملؤها الحنين بلوعة وحزن وسخط. وعليه؛ جاءت مضامين الحنين عند هذا الشاعر على النحو التالي: الحنين إلى الأبناء، الحنين إلى المرأة، الحنين إلى مرحلة الشباب، الحنين إلى الأطلال، الحنين إلى الحرب، الحنين إلى الروح المشرقية، والحنين إلى الخمر، والحنين إلى الطرب.

ف جاءت الدراسة بمطلبين: تحدّث الأول منهما عن الشاعر والديوان، في حين عرض الثاني أمثلة تمثل ألفاظ الحنين ومثيراته الواردة في شعره من جانب، وأمثلة أخرى تجسّد مضامين الحنين عنده من جانب آخر.

يُعدّ البحث في اللغة الشعرية أولوية من أولويات النقد اللغوي- لا عند النقاد العرب فحسب بل عند نقاد الغرب (مولينييه، 1999) أيضاً- وذلك لأسباب عدّة أبرزها أنّ الأدب تعبير عن الحياة أداته اللغة (الملائكة، 1983) (إسماعيل، 1986) (مطلوب، 2002م) (عياد، 1998م) (إسماعيل، 1987م) (ويلك وستون، 1987م)، (الورقي، 1984م). من حيث هي تبطن عدداً كبيراً من نظم التقاليد الاجتماعية، ثم هي تعكس فكر الشاعر ومزاجه وشعوره وطبعه وقدرته على الانتقاء اللغوي باعتبار أن اللغة المستحضرة منتقاة مختارة (جونسون، 1982) (الشايب، 1988م). ذلك أن تكوين أي جملة لغوية تتطلب من المبدع اختيار عناصرها وجمعها في نسق متصل، فهو يقوم بالعملتين في الوقت نفسه تقريباً: عملية اختيار العناصر وعملية تأليفها في منظومة لغوية، أما الاختيار فهو يعتمد على انتقاء الكلمات من بين مجموعة من العناصر التي يمكن لها أن تتبادل موقعها، ومن هنا فهو يقوم على ما يسمى

* كلية عجلون الجامعية، جامعة البلقاء التطبيقية، الاردن. تاريخ استلام البحث 2015/3/1، وتاريخ قبوله 2015/5/24.

(273-238)، والأمير منذر (275 هـ) والأمير محمد (300 هـ)، وأدرك شطراً من عهد عبد الرحمن الناصر الذي تلقب بالخلافة (300-350 هـ)، وقد كانت صلته بالدولة المروانية وثيقة وليس أدل على ذلك من مديحه لهم واعتقاده بخلافتهم ومحبته لهم؛ الذي تعكسه الأرجوزة التاريخية له، وأبياتها (445) بيتاً مزدوجاً من الرجز، تغطي الأرجوزة من عام (300-322 هـ) من حياة الخليفة الأندلسي الناصر لدين الله عبد الرحمن بن محمد. (ابن عبد ربه، 2003) التي تطرّق فيها إلى مكانة عبد الرحمن الناصر في تاريخ الأندلس وربتته في الخلافة.

وقد شهد القدماء لابن عبد ربه شاعريته الرفيعة واختياره المناسب فاعترفوا بفضله وأقروا ببراعته ومن أقوال القدماء تلك: قول المتنبي، وقد سمع ابن عبد ربه يقول في الغزل (ابن عبد ربه، 2003): (الكامل).

يَا لَوْلُوَ يَسْبِي الْعُقُولَ أَنْيَقَاً

ورشاً بِنَقْطِيعِ الْقُلُوبِ رَفِيقَا

مَا إِنْ رَأَيْتُ وَلَا سَمِعْتُ بِمِثْلِهِ

دُرّاً يَعُودُ مِنَ الْحَيَاءِ عَقِيقَا

وَإِذَا نَظَرْتُ إِلَى مَحَاسِنِ وَجْهِهِ

أَبْصَرْتُ وَجْهَكَ فِي سَنَاهُ غَرِيقَا

يَا مَنْ تَقَطَّعَ حَصْرُهُ مِنْ رِقَّةٍ

مَا بِالْ قَلْبِكَ لَا يَكُونُ رَقِيقَاً!

فقال المتنبي له: "يا ابن عبد ربه، لقد يأتيك العراق حبواً" (المقري، 1990م) (الحموي، 1993م)، ويقول صاحب الوافي بالوفيات: كانت له بالعلم جلاله، وبالآدب رياسة " (ابن خلّكان، 1948م). وكذا هو رأي بعض المحدثين يقول الداية في ابن عبد ربه: "ابن عبد ربه شاعر عصره بلا منازع، وقد كان مكثراً في الشعر، مشاركاً في التعبير عن أحداث عصره كما كان الشعرُ زاده الشخصي في التعبير عن نفسه وفي صلته بالناس" (الداية، 2003).

وقد قسّم الدارسون (عبّاس، 2000م) (ابن عبد ربه، 2003) شعر ابن عبد ربه إلى مرحلتين: مرحلة الشباب التي نظم فيها الغزل والخمر والغناء وأطلق لخياله العنان في ذلك. ومرحلة الشيخوخة وقد أدركه الورع حتّى نقض كل قصيدة قالها في شبابه بشعرٍ آخر يكفر فيه عمّا سلف، وسمّى تلك القصائد (المحصّات)، ومنها هذه المقطوعة الغزلية التي قالها في شبابه في رحيل من يحب (ابن عبد ربه، 2003): (البسيط).

هَلَا ابْتَكَّرْتَ لِيَبِي أَنْتَ مُبْتَكِّرُ

هَيْهَاتَ! يَا بِي عَلَيَّكَ اللَّهُ وَالْقَدَرُ

مَا زِلْتُ أَبْكِي حِذَارَ الْبَيْنِ مُلْتَهِفَاً

وقبل هذا وذاك وجب أن يتناول البحث شخصية الشاعر الأدبية الاجتماعية تناولاً موجزاً يمكننا الوقوف معه على لبنات هذه الشخصية الفذة، ثم نتعرف من خلاله إلى مدى تأثير هذه الشخصية في المعجم الشعري الخاص به.

المطلب الأول:

الشاعر والديوان

يُعدّ الشاعر (ابن عبد ربه الأندلسي (246-328)) (الحموي، 1993م) (ابن خلّكان، 1948م) (المقري، 1990م) (الحميدي، 1966) (عبّاس، 2000م) (الداية، 2000م) (والي، 1996م) (هيكل، 1979م) (الشكعة، 1983م).

أشهر شعراء عهد الخلافة الأندلسية في الفترة الواقعة بين (300-350 هـ)، وهو ما أسماه إحسان عباس: عصر سيادة قرطبة بقوله "إن ما يسمى عصر سيادة قرطبة يبدأ منذ أن كانت الأندلس ولاية تابعة لدمشق (138 هـ)، ثم أصبحت دولة مستقلة عن خلافة المشرق، يحكمها أمراء ثم خلفاء من بني أمية (399 هـ)، مروراً بالخليفة عبد الرحمن الناصر (300-350 هـ)، ثم الحكم المستنصر (366 هـ)، ووصولاً إلى عهد الخليفة هشام المؤيد حين أصبح الحاجب هو السلطان الفعلي (الدولة العامرية) وانتهاء بالفتنة البربرية التي أدت إلى انقسام المدن وحكم ملوك الطوائف التي أدت إلى ضياع سيادة قرطبة". (عبّاس، 2000م) وابن عبد ربه (مليح الأندلس) هو أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه، ولد بقرطبة لأسرة تنتمي إلى (سالم) أحد موالى الأمويين، نشأ فقيراً مغموراً ولكنه كان من الذين بلغوا المكانة والحظوة بشعرهم وأدبهم.

وقد كان لابن عبد ربه ثقافة متينة ركنها: العلوم الدينية الشرعية من جهة، وعلوم العربية وآدابها من جهة أخرى، إذ تمكّن من الثقافة العربية وإطلع على الشعر العربي قديمه ومحدثه، وظهرت آثار هذه الثقافة في كتابه (العقد) الذي استقى مادة كتابه من كتب مشرقية لعلماء مشاركة مثل ابن قتيبة في عيون الأخبار، والجاحظ في البيان والتبيين، والمبرد في الكامل، وابن المقفع في كليله ودمنة، كما نقل عن ابن هشام صاحب السيرة، وقد طبع كتاب العقد مراراً (ابن عبد ربه، 1987م)، كما ظهرت في إشارات الفقهية والتاريخية، وفي معارضاته الأدبية في شعره، ثم إنه ترك ديوان شعر كبيراً (الداية، 2003م)، وقد فقد هذا الديوان، وروي عن صاحب "جذوة المقتبس أنه رآه مكتوباً بيد الشاعر ابن عبد ربه وإنه يزيد على عشرين جزءاً، ولم يبق منه سوى نُتْفٍ قليلة ماثورة في كتب الأدب والتاريخ وكتاب العقد.

أدرك ابن عبد ربه من أمراء بني أمية- عهد الأمير محمد

النفس، ذاك الأثر الذي يدل عليه المعنى اللغوي، إلى دائرة الأثر النفسي الزمني والروحي؛ إذ لم يعد الحنين مرتبطاً بالاعتراب المكاني فحسب، فهو فضلاً عن كونه يعبر عن عاطفة جياشة انتماءً إلى مكان ما، وتعبيراً عن حالة اغترابية كامنة في الابتعاد عن ذلك المكان يمكن أن يكون تعبيراً عن شوق للحب، أو لمرحلة الشباب، أو فقدان لأي طموح أو أمل أو أمنية للشاعر.

فمفهوم الحنين أوسع وأشمل من مجرد الشعور بالغبية، فما الغربة إلا دافع ومسبب للحنين، ولعلها من أبرز دوافع الحنين وأسبابه الشائعة؛ فعندما يغترب المرء يشعر بالحنين لوطنه وأهله ومرابع طفولته وشبابه، وهو في ديار جديدة لم يكن له سابق عهد بها، ولم تربطه بها روابط النشأة والألفة والتكيف. وقد جعل القرآن الكريم الخروج من الديار والحنين إليها يكافئ قتل النفس يقول جل وعلا ((وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ)) (النساء 22).

وإذا ما تتبعنا لفظتي الغربة والاعتراب فإننا نجدهما كالأتي: الغربة هي النوى والبعيد والتتحي عن الناس والتغريب والنفي عن الأوطان، وغرب في الأرض وأغرب: إذا أمعن في البعد، وأغرب صار غريباً بعيداً (ابن منظور 1994م)، سواء أكان بعداً مكانياً (الغربة والسفر عن الأهل قسرياً أو اختيارياً)، أم كان بعداً زمانياً اجتماعياً، وهو الاعتراب (الذي غالباً ما يكون طوعياً باختيار المرء نفسه)؛ إذ يشعر بعدم الانسجام مع المجتمع الذي ينتمي إليه، ويفتقد الأمن النفسي والعلاقات الاجتماعية الحميمة، مما يؤدي للشعور بالوحدة والعجز والفرغ النفسي، ولعل أسمى أنواع الغربة هي الغربة داخل الوطن، عندما يشعر الإنسان بالحنين إلى زمان آخر ومكان آخر وأناس آخرين فتتولد عنده الوحشة والألم والمرارة، وهذا بالتحديد ما حدث مع شاعرنا؛ لأن الشاعر (ابن عبد ربه الأندلسي) لم يثبت أنه قد غادر وطنه (قرطبة) فقد عاش حياته كلها في قرطبة. الحموي (1992م)، فروخ (د.ت)، عباس، (2000م) فهو لم يتغرب عن وطنه بل شعر بالاعتراب داخل وطنه. وهذه المعاني وجدتها حاضرة في ديوان ابن عبد ربه، فهو يعبر عن حنين زمني بقوله (ابن عبد ربه، 2003م) (اليسيط).

مُسْتَوْجِشاً مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ كُلِّهِمْ

كَأَنَّمَا النَّاسُ أَقْدَاءٌ عَلَى بَصْرِي

كما يعبر شعر ابن عبد ربه عن نوع آخر من الحنين، وهو حنين نابغ من الروح، مرتبط بالدين الذي يجدر شعور المرء بأن هذه الحياة ليست حياة الروح الصافية النقية الخالدة، لأن

حَتَّى رَأَيْتُ لِي فِيكَ الرِّيحُ وَالْمَطَرُ

أَلَيْتُ أَلَا أَرَى شَمْساً وَلَا قَمَرًا

حَتَّى أَرَكَ فَأَنْتَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ

وقد حصصها في شيخوخته بقصيدة على الوزن والروي نفسه خاتماً هذه الموصلة بمطلع القصيدة السابقة قائلاً (ابن عبد ربه، 2003):

يَا مَنْ تَلَهَّى وَشَيَّبَ الرَّأْسَ يَنْدُبُهُ

مَاذَا الَّذِي بَعْدَ شَيْبِ الرَّأْسِ تَنْتَظِرُ

لَوْ لَمْ يَكُنْ لَكَ غَيْرُ الْمَوْتِ مَوْعِظَةٌ

لَكَانَ فِيهِ عَنِ اللَّذَاتِ مُرَدَجِرُ

أَنْتَ الْمَقُولُ لَهُ مَا قُلْتُ مُبْتَدَأُ:

"هَلَا ابْتَكُرْتَ لِيْبِيْنِ أَنْتَ مُبْتَكِرُ"

المطلب الثاني

شعر الحنين في ديوان ابن عبد ربه الأندلسي

• الحنين والغربة لغة واصلاحاً

تعود كلمة (الحنين) إلى الجذر الثلاثي (حَنَن)؛ جاء في أساس البلاغة "حَنَّ إلى وطنه، وحَنَّ عليه حناناً: ترحَّم عليه، والحنين للإبل، واستحنه الشوق، استطربه". (الزمخشري، 2002م) وجاء في لسان العرب أن "الحنين: هو الشديد من البكاء والطرب، وقيل هو صوت الطرب، كان ذلك عن حزن أو فرح، والحنين: الشوق وتوقان النفس والمعنيان متقاربان، والاستحنان: الاستطراب، واستحَنَ: استطرب، وحنت الإبل: نزعت إلى أوطانها وأولادها، والناقاة تحن في إثر ولدها حنيناً تطرب مع صوت، وقيل حنينها: نزاعها بصوت وبغير صوت، وتحننت الناقاة على ولدها: تعطفَّت". (ابن منظور، 1994م) "ولا تجد أدبا لأية أمة من الأمم القديمة والحديثة إلا وترى في ثناياها شعر الحنين" (حور، 1989م).

ومما جاء عن الحنين في الأقوال المأثورة حديث الأصمعي حيث يقول: دخلت البادية فنزلت على بعض الأعراب، فقلت: أفندي، فقال: الأعرابي: "إذا شئت أن تعرف وفاء الرجل، وحسن عهده، وكرم أخلاقه وطهارة مولده، فانظر إلى حنينه إلى أوطانه، وتشوقه إلى إخوانه، وبكائه على ما مضى من أزمائه (حور، 1989) (القيسي، 1970م)، وقد روت العرب عن حكيم الفرس بزجرهم قوله: "من أمارات العاقل بره بإخوانه وحنينه إلى أوطانه" (حور، 1989م).

فالحنين (nostalgia) غناء رقيق شجي ينبغ من القلب، يمتزج بعاطفة تعبر عن اللهفة الملتهبة لكل ما يثير كوامن النفس وما يعترئها من ذكريات وآمال، وهو مفهوم - بلا ريب - يوسع من أفق (الحنين)، ويخرج به من دائرة أثر البعد المكاني في

الحنين ألقاظه ومثيراته، وثانياً: عند مضامين الحنين في ديوانه.

أولاً: ألقاظ الحنين ومثيراته ووسائله في ديوان ابن عبد ربه الأندلسي

يجد الناظر في ديوان ابن عبد ربه كيف انساب شعر الحنين على مفردات شعره انسياً صافياً عذباً، حتى أضحت تلك المفردات المرآة الصادقة لنبل عاطفته وتدينه وورعه ونظرته للحياة، فقد كان "متصاوناً متديناً آخذاً بحظه من المتع المباحة" (عباس، 2000) - فكان لألقاظ الحنين حضور بارز في ديوانه؛ إذ شغلت هذه الألقاظ مساحة شاسعة من شعره، سكب فيها الشاعر نار الفراق وحرقة الشوق حتى برزت لهفة اللقاء مؤججة في حروف ألقاظه وقوافي قصائده، وغدا ألم البعد ساطعاً من بين لبنات نسيجه الشعري، إذ إنه رسم كل معاني الحنين والشوق في قصائده وسطر لكل هذه المعاني الألقاظ التي تجسدها وتعبّر عنها تعبيراً صادقاً واعياً، فبدت معاني الحنين ومثيراته ووسائله واضحة في هذه الألقاظ، وقد حاولت استقصاء هذه الألقاظ ورصدها في ديوان ابن عبد ربه، فوردت كالاتي:

هذه الدنيا ليست باقية؛ فالمرء يعيش كالغريب ينتظر بأن تعود فيه الروح إلى عالمها الخالد، وفي هذا المفهوم تقترب من شعراء الزهد ومعانيهم بل شعراء المتصوفة الذين لا يشعرون إلا بالحنين الروحي متجاوزين (الحنين المكاني والزمني)، ويكتسب هذا النوع من الحنين (الحنين الروحي) قبولاً واسعاً بلا شك في الفترات الحرجة، حين يتقدم السن بالمرء حتى يشعر بدنو أجله، أو عندما يفقد عزيزاً فيلجأ إلى ربه ويلوذ بالدين عله يجد ضالته، فيزهد وي طرح الدنيا من حوله.

يقول ابن عبد ربه وهي من زهدياته (ابن عبد ربه، 2003م): (الوافر).

هِيَ الدُّنْيَا فَإِنْ سَرَّتْكَ يَوْمًا

فَإِنَّ الحُزْنَ عَاقِبَةُ السُّرُورِ

سَتَسْتَلْبُ كُلَّ مَا جَمَعْتَ مِنْهَا

كَعَارِيَةٍ تُرَدُّ إِلَى المَعِيرِ

وَتَعْتَاضُ اليَقِينِ مِنَ التَّظَنِّي

وَدَارَ الحَقِّ مِنْ دَارِ العُرُورِ

ومما يلحظ على ديوان ابن عبد ربه طغيان غرض (الحنين) على الأغراض الشعرية الأخرى في شعره، ولكي أستظهر هذا الأمر كان لا بد لي أن أقف أولاً: عند شعر

مكانها في الديوان

(281)	(315)
(51، 57، 113، 127، 142، 142، 193)	
(52، 213، 179)	
(51)	
(261)	
(51)	
(159)	
(52، 53، 58، 60، 66، 70، 75، 113، 121، 125، 130، 131، 163، 236، 211، 210، 189، 300، 301، 97)	
(57، 66، 281، 253)	
(57، 75، 206، 231، 232، 256، 267، 301، 304)	
(51، 52، 53، 57، 115، 125، 253، 213، 269، 244)	
(66، 70، 71، 72، 287)	
(70، 115، 27)	
(277، 265، 122، 169، 209، 232)	
(140، 193، 169، 210، 295، 277، 262، 261)	
(30، 213، 66)	
(290)	
(75)	
(232، 206، 221، 211)	
(69)	
(127)	

اللفظة

* حنّ، حنّ
* الصبر ومشتقاتها
* اليأس
* العناء
* بانوا
* النار
* نأت
* الدمع والدموع والعبرات ومشتقاتها
* الشكوى ومشتقاتها
* الوصل ومشتقاتها
* الداء والشفاء والسقم
* الجوى
* اللوعة
* الهجر ومشتقاتها
* الذكرى ومشتقاتها
* الشجو والشجون
* هيّج
* الصباية
* الوداع ومشتقاتها
* لهف نفسي
* الجلد

(148، 145، 209، 151، 129، 126، 121، 113، 70)	* كبدِي، مكابدة ومشتقاتها
،226، 244، 212، 217، 231، 139، 123، 115، 88، 85، 53، 52)	* القلب
(323، 164)	
،300، 279، 244، 219، 193، 163، 161، 125، 113، 81، 57، 52)	* الفؤاد
(194، 173)	
(113)	* الغائب
،240، 173، 189، 131، 117، 113، 112، 111، 66، 61، 57، 52)	* البكاء ومشتقاتها
(300)	
(211)	* النشيج
(182، 52)	* الرجاء
(139)	* أقصيتني
(229، 212)	* الوجد
(113، 295، 173، 238، 237)	* الفراق
(307، 261، 237، 151)	* البين
(231، 210، 161، 151، 126، 113، 75، 58)	* الشوق ومشتقاتها
(300، 225، 148، 86، 75، 57)	* هيَج الشوق ومشتقاتها
(129، 221، 121)	* الغربية والتغرب
(169، 148، 115، 114)	* أسلو ومشتقاتها
(231)	* السهد والسهاد
(288)	* الرحيل
(120)	* وحشة الروح
(58)	* القرب
(122، 120، 85، 78، 75)	* الأرواح
(117)	* الفجع
(161)	* المهجة
(144)	* هلاً عطفت
(126)	* لواعج الكمد
(193)	* جمر الغضا
(180)	* الأنيس
(148)	* الأسي
(211)	* النشيج
(76، 289)	* جرعتني
(75)	* الغصّة
(109)	* التجلّد
(300) (111) (76) (66)	* الحمام
(238)	* الوداع
(289) (57)	* الريح والنسيم
(261) (259) (243) (75)	* الأطلال
(289) (258) (231) (162) (153)	* رؤية الشيب

سطح القصيدة وقد انطلقت من قلب الشاعر وعقله بعد أن هيّجت تلك المثيرات أشجان الشاعر بل عصفت به فكانت سببا لعذابه، وتذكره لأحبابه وأهله وأوطانه. وقد تنوّعت تلك الألفاظ المثيرة في حضورها في ديوان الشاعر ومع هذا تبقى في

وتتوزّع هذه الألفاظ- وإن جُمعت في جدول واحد- بين سبب ونتيجة، فقد تجد لفظة من هذه الألفاظ سببا في حدوث نتاج دلالي للفظه أخرى؛ أي أنها تشكل دافعا مثيراً لتدافع تلك اللفظة بما تحوي من معاني الحرقه والألم كي تظهر على

قول ابن عبد ربه بدياره وقد مضى وقت طويل على فراقه لها، وفعلت الأيام والسنون فعلها في الديار حتى كاد ينساها ويذهل عنها فما هو يقول (ابن عبد ربه، 2003م): (السريع)
قَالِدَارُ قَدْ ذَكَرْتَنِي رَسْمُهَا

مَا كِدْتُ عَنْ تَذْكَارِهِ أَذْهَلُ

هَاجَ الْهَوَى رَسْمَ بَذَاتِ الْعَصَا

مُخْلَوْلُ قُ مُسْتَعَجِمَ أَحْوَلُ

3. الرياح: وهي أيضا من محفّرات الحنين ومثيراته عند شعراء العربية، فكأنهم يتسمّون بهبوب الرياح نسايم بلادهم ويشتمون رائحتها خاصة إذا كانت قادمة من ناحية الأهل أو الأحباب والأعزاء، وقد أطلق على هذه الرياح أسماء عدّة: كالرياح الشمالية أو الجنوبية، وريح الصبا، وريح السموم، وريح الهيف وغيرها (حور، 1989)، وقد ذكر ابن عبد ربه النسيم والرياح الشمالية والجنوبية بقوله (ابن عبد ربه، 2003م): (الكامل)

وَإِذَا الشَّمَالُ مَعَ الْعَيْشِيِّ تَسَمَّتْ

هَاجَ التَّسْمُ لِي دَفِينِ سَقَامِ

وقوله (ابن عبد ربه، 2003م): (مجزوء الكامل)

رِيحُ الشَّمَالِ تَهِيجُهُ وَتَهِيجُنِي رِيحُ الْجَنُوبِ

4. الدموع: وهي من أكثر وسائل الحنين التي حضرت حضوراً لافتاً في ديوان ابن عبد ربه، فإذا كانت الأطلال والحمام والرياح قد أثارت حنينه فإن الدموع قد أسعفت هذا الشاعر في التعبير عن حنينه ووجده وشجونه، فكلما انهمرت غزيرة كلما خففت من لوعته ومعاناته ف شعر براحة نفسية من خلال انهمار هذه العبرات، بالبكاء والنحيب، وقد وردت ألفاظ العبرات والدموع والبكاء في ديوانه في خمسة وثلاثين موضعاً بشكل مباشر وصريح.

فانظر إلى هذه الصورة الرائعة التي يشبه فيها دموعه بالمطر وخذه بالأرض ومقلته بالسماء التي تنهل منها العبرات إذ يقول (ابن عبد ربه، 2003م): (الطويل)

فَحَدَيْ أَرْضَ الدُّمُوعِ وَمُقْلَتِي سَمَاءَ لَهَا تَنْهَلُ بِالعِبْرَاتِ

والنماذج كثيرة متنوعة على ألفاظ الحنين ووسائله ومثيراته في ديوان ابن عبد ربه، نستطيع استظهار كمها من خلال الجدول السابق.

ثانياً: مضامين "الحنين" في ديوان ابن عبد ربه الأندلسي:

1. الحنين إلى الأبناء

تحدثت سابقاً عن ما يسمّى "بالحنين الروحي" وقلت إنّ هذا النوع يتجاوز المكان والزمان، وينزع إلى أسمى من ذلك، إلى (الروح)، وهو يكتسب قبولاً في الفترات الحرجة من حياة الإنسان فيلجأ المرء إلى ربه ويلوذ بالدين علّه - يجد ضالّته -

حضورها الكيفي محفّزة لشجن الشاعر وحنينه.

ومن نماذج تلك المثيرات (حور، 1989م) (فهمي، 1982م) التي هيّجت حنين ابن عبد ربه وأثارت عنده الشوق والوجد وذكرته باغترابه فأنطقت لسانه بشعر الحنين:

1. الحمام: فكثيراً ما جاء في الشعر العربي بمختلف عصوره أن صوت الحمام ورؤياه يهيج أشجان الشاعر (الطثرية، 1973م) (جميل بثينة، 1969م)، حتى بات حمام الإيك الذي يصدر أصواتاً شبيهة بالنواح ويبيكي إلفه الذي مات أو اصطيد - بات مضرباً للأمثال في بكائه هذا، حتى إذا ما سمعه الشاعر المكوم أثار في نفسه الحنين والشجن بسبب المعاناة المكتومة داخل وجدانه، وقد أثار الحمام حنين شاعرنا في خمسة مواضع من ديوانه ابن عبد ربه، إذ كان يسقط الشاعر مشاعره على ترنّم الحمام جاعلاً من الحمام معادلاً موضوعياً يشعر بالأمه، ويعاني الفقد الذي يغشاه.

فها هو يقول وقد أثاره الحمام حتى وصل في بكائه إلى الدرجة التي وصل إليها الحمام في بكائه، لا بل وصل به الأمر أن جعل من الحمام إنساناً يخفف عنه أجزائه تلك، يقول (ابن عبد ربه، 2003م): (الطويل).

وَيَهْتَأُ كُلُّ مَا كَانَ سَاكِنًا

دُعَاءُ حَمَامٍ لَمْ تَبِتْ بُوْكُونِ

وَإِنَّ ارْتِيَاحِي مِنْ بُكَاءِ حَمَامَةٍ

كَذِي شَجِنِ دَاوِيئَهُ بِشُجُونِ

كَأَنَّ حَمَامَ الأَيْكِ حِينَ تَجَاوَبَتْ

حَزِينٌ بَكَى مِنْ رَحْمَةٍ لِحَزِينِ

وقريب من هذا قوله: (الكامل) (ابن عبد ربه، 2003م):

أَبْكِي عَلَيْكَ إِذَا الحَمَامَةُ أَطْرَبَتْ

وَجَهَ الصَّبَاحِ وَغَرَّدَتْ تُغْرِيدًا

وها هو يسائل نفسه قائلاً (ابن عبد ربه، 2003م):

(الطويل)

أَنَا حَتَّ حَمَامَاتُ اللّوَى أَمْ تَعَنَّتِ

فَأَبَدْتُ دَوَاعِي قَلْبِهِ مَا أَجْنَبَتْ

فبكاء الحمام يهيج حنينه دائماً يقول: (الكامل)

مَا كَلَّمَا، بَلْ رُبَّمَا عَبَثَ البُكََا

بِدُمُوعِ عَيْنِكَ مِنْ بُكَاءِ حَمَامِ (ابن عبد ربه، 2003م)

2. الأطلال: لا يستطيع قارئاً أن ينكر الرابط القوي بين الحنين والذكري والطلال، فمن أكثر المشاهد إثارة للحنين أن تمر عن طلل فترى ذلك المكان الذي تربطك به ذكريات خالدة قد درست معالمه واخترقت آثاره، مما يهيج في نفسك الألم والشجن والحزن على المكان بذكرياته وساكنيه، وقد حفل ديوان ابن عبد ربه بهذه النماذج أذكر منها:

يَا أَطْيَبَ النَّاسِ رُوحاً ضَمَّهُ بَدَنٌ
أَسْتَوْدِعُ اللَّهَ ذَاكَ الرُّوحَ وَالْبَدَنَا
لَوْ كُنْتُ أُعْطِي بِهِ الدُّنْيَا مَعَاوِضَةً
مِنْهُ لَمَا كَانَتِ الدُّنْيَا لَهُ ثَمَنًا
وها هو يخاطب الحمام ويهيجه صوت الحمام ويكاؤه
فيضطرم حنينه وتزداد لوعته كلما رأى أو سمع الحمام ومن
أقواله في ذلك (ابن عبد ربه، 2003م): (الطويل)
وَيَهْتَا جُ كُلُّ مَا كَانَ سَاكِنًا

دُعَاءُ حَمَامٍ لَمْ تَبْتُ بِوُكُونِ
وَأَنَّ ارْتِيَا حِي مِنْ بُكَاءِ حَمَامَةٍ
كَذِي شَجَنِ دَاوِيَّتَهُ بِشُجُونِ
كَأَنَّ حَمَامَ الْأَيْكِ حِينَ تَجَاوَيْتُ
وَقوله (ابن عبد ربه، 2003م): (الكامل)
أَبْكِي عَلَيْكَ إِذَا الْحَمَامَةُ أُطْرِبَتْ

وَجَاءَ الصَّبَاحُ وَغَرَّدَتْ تَغْرِيدًا
وَقوله (ابن عبد ربه، 2003م): (الطويل)
أَنَاخَتْ حَمَامَاتُ اللَّوَى أَمْ تَعَنَّتِ
فَأَبْدَتْ دَوَاعِي قَلْبِهِ مَا أَجْنَتْ
وقال: (ابن عبد ربه، 2003م) (الكامل)
مَا كُلَّمَا، بَلْ رُبَّمَا عَبَثَ الْبُكَاءُ

بِدُمُوعِ عَيْنِكَ مِنْ بُكَاءِ حَمَامٍ
ويوجد عدد كبير من المقطوعات التي ذكر فيها ابن عبد
ربه حنينه إلى أبنائه في ديوانه (ابن عبد ربه، 2003م).

2. الحنين إلى ذكريات الأطلال وساكنتها

إن المتتبع لشعر ابن عبد ربه يلحظ ظاهرة "الوقوف على
الأطلال" بكثرة، فقد بكى الشاعر على "الديار وبقايا الرسم"
"والمقام العافي المنذر" وخاطب "الأوتاد" والأثافي"، وقد أعجزه
هذا التذكّر عن الكلام، وقد ورد ذكر الأطلال في ديوانه في
أحد عشر موضعاً بقصائد ومقطوعات تفرد بهذا الموضوع (ابن
عبد ربه، 2003م).

ولا يستطيع قارئ أن ينكر الرابط القوي بين الحنين والذكري
والطلال، وما يلفت النظر في هذا الموضوع أننا نعلم أن ابن
عبد ربه قد عاش حياته كلها في قرطبة ومات فيها، إذ لم
يهجر أو يُطرد أو تُدمّر مدينته في عهده، حتى إنه لم يخرج
في رحلة إلى المشرق، كي يُناجي تلك الأطلال؛ وعليه أرجح
أن ابن عبد ربه قد تصوّر أطلالاً ليكي عليها ويحن من
خلالها، وحسبنا أن نتذكر أنه قد شاع لدى معظم الشعراء
محاولتهم إيجاد حالات تستثير فيهم الحزن والوجد والألم (حور،
1989م)، وليس ثمة ما هو أبلغ من الأطلال مشهداً يحرك

وهل من فترة أخرج من أن يفقد المرء أبنائه؟! وقد عدّ فاضل
فتحي والي في كتابه "الفن والنكبات الخاصة، وأثرها في الشعر
الأندلسي"، ابن عبد ربه من الشعراء المنكوبين فقال "أحمد بن
عبد ربه من الشعراء الذين أصابهم البلاء، ولكن بلاءه لم يكن
في بدنه ولا في وطنه بل كان في فلذتي كبده، في ولديه
الحبيين، كان أحدهما طفلاً صغيراً، وكان الثاني كبيراً، يكتى
بأبي بكر واسمه يحيى، فكان النتاج الأدبي الشعري المعبر عن
هذا الحنين يظهر في عدد من القصائد" (والي، 1996م).

ولعلّ الإحساس بالفقد نتيجة الموت من أكثر المحكات التي
تبرز شعر الحنين، فهو ينضوي على شعور الإنسان بانفصاله
عن ذاته، وانفصاله عن ظرف إنساني مثالي كان يعيشه في
وجدانه، فالأولاد حالة امتداد لبقائه، فعندما يختطف الموت
أحدهم أو جميعهم يشعر المرء بانفصاله عن ذاته بانقطاع هذا
الظرف الإنساني المثالي، فتبدأ هواجس مختلفة الإيقاع تعزف
أنغام الحزن والألم في وجدانه، فلا يستطيع أن يخرج منها،
حتى يبلغ مرحلة الإحساس بانعدام الجدوى من الحياة كلها،
فمن أروع نغمات الحنين ما قاله ابن عبد ربه في رثاء أحد
أبنائه (ابن عبد ربه، 2003م): (الطويل)

وَأَنْظُرُ حَوْلِي لَا أَرَى غَيْرَ قَبْرِهِ
كَأَنَّ جَمِيعَ الْأَرْضِ عِنْدِي لَهُ قَبْرُ
وَلِي كَبِدٌ مَشْطُورَةٌ فِي يَدِ الْأَسَى
فَتَحَّتِ النَّرَى شَطْرَ وَفُوقَ النَّرَى شَطْرُ
يُقُولُونَ لِي: صَبْرٌ فُؤَادَكَ بَعْدَهُ

فَقُلْتُ لَهُمْ: مَا لِي فُؤَادٌ وَلَا صَبْرُ
ففي هذه الأبيات يصوّر لنا حنينه وشوقه لفلذة كبده تصويراً
يملك علينا أنفاسنا، ويستملك قلوبنا لأنه حنين صادق منبعث
من قلب مكلوم مفطور.

وها هو الحنين يبلغ أشده عند ابن عبد ربه فيتمنى الموت
فلم يعد يقوى على الصبر والتجدد ليقول (ابن عبد ربه،
2003م): (المنسرح)
لَا صَبْرَ لِي بَعْدَهُ وَلَا جَلْدٌ

فُجِعْتُ بِالصَّبْرِ فِيهِ وَالْجَلْدِ
لَوْ لَمْ أَمُتْ عِنْدَ مَوْتِهِ كَمَدًا
لَحَقَّ لِي أَنْ أَمُوتَ مِنْ كَمَدِي
وانظر إلى هذه الحسرة التي يبعثها في النفس حين يقول
لابنه الفقيد (ابن عبد ربه، 2003م): (البسيط)

يَا سَيِّدِي وَمَرَاخِ الرُّوحِ فِي جَسَدِي
هَلَّا دَنَا الْمَوْتُ مِنِّي حِينَ مَنِكَ دَنَا
حَتَّى يَعُودَ بِنَا فِي قَعْرِ مُظْلِمَةٍ
لَحْدٌ، وَيُلْبِسُنَا فِي وَاحِدٍ كَفْنَا

كوامن الأحزان في وجدانهم، ويخلق لديهم تمهيداً مأساوياً ليطلقوا من خلاله العنان لمشاعر الحزن والألم، لذا فإن المكان ليس الملمح الرئيس في عملية التذكّر، ذلك أن الذي يسيطر على الشاعر هو فيض الذكريات المتمثل بـ (الطفولة، والشباب، والمحبة، والزمن الضائع)، فالطلل بهذا ربما يكون رمزاً للعمر المتقدم (الشيخوخة)، ورمزاً للموت الذي لا مفرّ منه، ورمزاً للحب الضائع، فالشاعر لم يقف على المكان العامر لأنه يوحي بالهجة والحياة، في حين يوحي المكان الخالي بالحزن والألم، فها هو يقول (ابن عبد ربه، 2003م): (السريع):

فَالدَّارُ قَدْ ذَكَرَنِي رَسْمُهَا

مَا كِدْتُ عَنْ تَذْكَارِهِ أَذْهَلُ

هَاجَ الْهَوَى رَسْمَ بِذَاتِ الْعَضَا

مُخْلُوقٌ مُسْتَعْجَمٌ أَحْوَلُ

وفي الأبيات التالية سنجد أن الدافع الأول والأهم للحنين هو الحب الذي عاناه الشاعر حين كانت هذه الديار مسكونة فتهيجه الذكرى ليقول (ابن عبد ربه، 2003م): (وهي من مقطعاته العروضية) (المتقارب):

سَلِ الرَّيْعَ عَنْ سَاكِنِيهِ فَإِنِّي

خَرِسْتُ فَمَا أَسْتَطِيعُ السُّؤَالَ

فِيَا صَاحِ هَذَا مُقَامِ الْمُحِبِّ

وَرَبْعِ الْحَبِيبِ، فَحَطَّ الرَّحَالَا

وقريب من هذا قوله (ابن عبد ربه، 2003م): (الرجز):

مَا بَالُ رَسْمِ الْوَصْلِ أَضْحَى دَائِرًا

حَتَّى لَقَدْ أَذْكَرَنِي مِمَّا دُنِيَ

وقوله (ابن عبد ربه، 2003م): (الطويل)

دِيَارٌ عَفَّتْ تَبْكِي السَّحَابُ طُلُوعَهَا

وَمَا طَلَّلَ تَبْكِي عَلَيْهِ السَّحَابُ

3. الحنين إلى الجهاد

لم تكن أرض الأندلس أرض جمال فحسب، بل أرض جهاد وموطن رباط (ابن بسام، 1997م)، ومن هنا فإن من المضامين الحنينية التي برزت في ديوان ابن عبد ربه تمثل مظهراً من مظاهر الحنين، ولا نستغرب أن يذكر ابن عبد ربه الحرب، فقد كان من الشعراء الذين أرخوا للأندلس (ابن عبد ربه، 2003م)، وتاريخ الأندلس حافل بالحروب والفتوحات، فقد ورد ذكر الحرب في كل القصائد المدحية في الديوان في ثمانية وعشرين (28) موضعاً (ابن عبد ربه، 2003م).

قال ابن عبد ربه يمدح عبد الرحمن الناصر في أول غزواته (ابن عبد ربه، 2003م): (البيط)

وَالْحَرْبُ لَوْ عَلِمَتْ بِأَسَا تَصُولُ بِهِ

مَا هَيَّجَتْ مِنْ حُمَاكَ الَّذِي اهْتَاجَا

وَأَصْبَحَ النَّصْرُ مَعْقُوداً بِالْوَيْةِ

تَطْوِي الْمَرَاجِلَ تَهْجِيراً وَإِدْلاجَا

وعلى النهج نفسه قال (ابن عبد ربه، 2003م): (الكامل):

وَإِذَا الْمَعَاقِلُ أُرْتَجَّتْ أَبْوَابُهَا

فَالسَيْفُ يَفْتَحُ فُقُلَ كُلِّ رِتَاجِ

وانظر إلى هذا التصوير المتقرد للسيف بقوله (ابن عبد ربه، 2003م): (الطويل)

سُيُوفٌ يَـقِيلُ الْمَوْتَ تَحْتَ ظُبَاتِهَا

لَهَا فِي الْكُلَى طَعْمٌ، وَيَبِينُ الْكُلَى شُرْبُ

وتستمر قصة الحنين للحرب والموت في قوله في مدح

القائد أبي العباس (ابن عبد ربه، 2003م): (الوفر)

فَكَمْ هَذَا التَّمَنِّي لِلْمَنَابِيَا

وَكََمْ هَذَا التَّجَلُّدُ لِلْجِلَادِ

فعجيب ابن عبد ربه! في حنينه اللاهب الذي تذكره نار

الحرب والحب والبرق و النسيم وبكاء الحمامة.

4. الحنين إلى المرأة

ذكر إحسان عباس في تحليله لشخصية ابن عبد ربه أنه كان أخذاً حظه من المتع المباحة، فالحب والغناء والمرأة والخمر كلها وقفات أثارت شجون الشاعر ومشاعره، ولست هنا في مقام تحريم أو تحليل؛ فالموضوع فني بحت والقيمة للفن دون التعرض للفتاوى الشرعية في هذا السياق، وقد شغلت المرأة المساحة الأكبر بين هذه الوقفات، فقد قال ابن عبد ربه قصائد في الحنين إلى المرأة في ما يزيد على أربعين قصيدة ومقطوعة (ابن عبد ربه، 2003م).

ولعل أروع ما قاله ابن عبد ربه بما يتصل بالمرأة قوله (ابن عبد ربه، 2003م): (الخفيف)

وَدَعَنْتِي بِزَفْرَةٍ وَاعْتَنَاقِ

يا سَقِيمَ الْجَفُونِ مِنْ غَيْرِ سَقْمِ

بَيْنَ عَيْنَيْكَ مَصْرَعُ الْعُشَاقِ

إِنَّ يَوْمَ الْفِرَاقِ أَفْظَعُ يَوْمِ

لَبِيتِي مَتَّ قَبْلَ يَوْمِ الْفِرَاقِ

وقوله في السياق نفسه (ابن عبد ربه، 2003م)

هَيَّجَ الْبَيْنُ دَوَاعِيَ سَقْمِي

وَكَسَا جِسْمِي ثُوبَ الْأَلَمِ

يَاخِلِي الرُّوحَ نَمَ فِي غِبْطَةٍ

إِنَّ مَنْ فَارَقْتَهُ لَمْ يَنَمِ

وقال متحنناً إلى المحبوبة (ابن عبد ربه، 2003م):

(مجزوء البسيط)

ظَالِمَتِي فِي الْهَوَى لَا تَظْلِمِي

ي حَبْلَ مَنْ لَمْ يَصْرِمِ

جَعَلْتُ الغَيَّ سِرْبَالِي
وَكَانَ الرُّشْدُ بي أَوْلَى
6. الحنين إلى زمانٍ آخر

إذا كان الشعراء قد عبّروا في شعرهم عن حنينهم وأشواقهم إلى أوطانهم، وعن تطلّعهم إلى ذلك اليوم الذي يعودون فيه إلى أوطانهم وأماكن ذكرياتهم- فإن ابن عبد ربه قد زاد على مشاعر الحنين هذه حنيناً آخر وذلك حين حنَّ إلى زمن غير زمنه وكأنه يعيش اغتراباً من نوع خاص بل وغربة من مشهد خاص هي الغربة الزمنية لعوامل نفسية وظروف حياتية قد عاشها أو فرضت عليه. وقد تمثّل هذا عنده بطريقتين:

الطريقة الأولى: أنه لا بد من هذا الواقع الأليم في أول حياته وشبابه إلى اللهو والخمر والغناء والهجاء والطرب والغزل فذكر هذا وقد كثر هذا الأمر في ديوانه، فلجأ في آخر حياته للزهد فكتب شعر (الممحصات).

أما **الطريقة الثانية:** فإنه كتب أشعاراً بدأت بدم الزمان وانتهت بدم أهل الزمان، وكشف عيوبهم، وفي مقدمتها إبراز لؤمهم واختفاء المروءة والكرم من بينهم، وتوليّ السلطة من ليس بأهل لها، واختفاء البركة من الدنيا بحسب المعاني الموجودة في شعره. (ابن عبد ربه، 2003م) وقد ورد حنين ابن عبد ربه لزمان آخر وزمنه لأهل الزمان في اثني عشر (12) موضعاً (ابن عبد ربه، 2003م).

ومن أقواله في التظلم من السلطة وأهل الزمان قوله (ابن عبد ربه، 2003م): (الوافر)
وَدَهَّرَ سَادَتِ العُبدَانُ فِيهِ

وعائتُ في جَوَانِيهِ الذَّنَابُ
وأيامٌ خلّت من كلِّ خيرٍ

وَدُنْيَا قَدْ تَوَزَّعَهَا الكِلَابُ
وعلى هذا النهج نفسه يقول بحسرة لا يقوى على إخفائها (ابن عبد ربه، 2003م): (البيسط)

دَعْنِي أَصُنْ حُرّاً وَجَهِي عَن إِذَاتِهِ
وَإِن تَعَرَّيْتُ عَن أَهْلِي وَعَن وِلْدِي
قَالُوا نَأَيْتَ عَنِ الأَخْوَانِ قُلْتُ لَهُمْ:

مالي أخص غير ما تُطوى عليه يدي
وفي تضاعيف قصيدته العينية يفصح لنا عن سوء الناس وتبدل أحوالهم ليقول: (الطويل)

إِذَا كُنْتُ تَأْتِي المَرَّةَ تُعْظِمُ حَقَّهُ
وَيَجْهَلُ مِنْكَ الحَقَّ فَالْهَجْرُ أَوْسَعُ
وفي الناس أبدالاً، وفي الهجر راحةٌ

وفي الناس عمن لا يُؤاتيك مَفْنَعُ
وفي حالة انهيار المعايير والقيم التي كانت تنظم المجتمع والناس وتوجّه سلوكهم يتساءل ابن عبد ربه عما إذا كان وجود

ففي أبياته السابقة لا نخطئ الروح النقية المليئة بالحب والألم تلك الروح التي تحمل للمرأة كل الاحترام والخوف عليها والتحنان لها والحنق لفرافها بمشاعر لا يجد الشاعر ضيقاً في التعبير عنها.

5. الحنين إلى عهد الشباب
لعل أول نذير ينذر الإنسان بانتهائه وذنوّ أجله هو الشيب، إذ تجتمع في وجدانه مشاعر العجز والحزن والقلق والخوف والغضب والضعف معاً، فيحن إلى شبابه ويبيكي أيامه الخالية، زاعماً أنها- أي أيام الشباب- أفضل من أيامه التي يعيشها الآن، محملاً الدهر مسؤولية هذا التغيّر الذي انتابه وما يصاحبه من شعور بالتناقص في القدرات الجسدية والعقلية، فيشعر أن العمر بدأ ينسلّ من بين أصابعه هرباً، وإن الذي تبقى له في الحياة أقل من الذي ذهب وولّى، فيندم على أيامه التي أسرع، ويتمنى أن تعود، فالشاعر حين يذكر المشيب والشيب يعكس شعوره بالحنين إلى فترة مضت وذات مضت (ابن عبد ربه، 2003م).

فها هو يقف على أطراف عمره قائلاً: (الكامل)
وَلَى الشَّبَابُ فَقُلْتُ أُنْدُبُهُ

لا مثلاً قالوا، ولا نَدَبُوا" (ابن عبد ربه، 2003م)
وَلَنْتُ حُمِيّاً الشَّبَابِ عَنِّي

قلهف نفسي على الشَّبَابِ" (ابن عبد ربه، 2003م)
وانظر إلى هذه اللمحة الصادرة عن عاطفة جياشة صافية في قوله: (ابن عبد ربه، 2003م) (الوافر)

شبابي كيف صرت إلى نفاذ
وَبُدُنْتُ البِياضِ مِنَ السَّوَادِ

فراقك عرّف الأحزان قلبي
وفرق بين جفني والرقاد
فيا لنعيم عيشٍ قد تولّى

وبالغليل حزنٍ مُستفاد
وفي سياق آخر نرى أن الشاعر ابن عبد ربه يقف موقفاً مغايراً تماماً من الشباب، إذ يعدها مرحلة طيش وارتكاب للمعاصي، ويحملها مسؤولية الذنوب والأوزار التي ارتكبتها، وما يثبت هذه الرؤية ويثبت صحة زعمنا قصائده المسماة بـ

"ممحصات ابن عبد ربه".
ومنها قوله مخاطباً نفسه (ابن عبد ربه، 2003م):

(البيسط)
يا مَنْ تَلَّهَى وَشَيَّبُ الرُّؤسِ يَنْ دُوبُهُ
ما الذي بَعْدَ شَيَّبِ الرُّؤسِ تَنْتَظِرُ

وقوله يعاتب نفسه (ابن عبد ربه، 2003م):
ألا وَيَحُ قلبِي للشـ

حاتم وابن سنان وجوداً حقيقياً فيقول (ابن عبد ربه، 2003م):
(الطويل)

أبا صالح أين الكرام بأسرهم؟

أفدني كريماً فالكريم رضاء

أحقاً يقول الناس في جود حاتمٍ

بقاءً لئام الناس موتاً عليهم

وابن سنان، كان فيه سخاء؟

كما أن موت الأكرمين بقاء

ثم انظر إلى هذه الغصة التي يبثها في هذه المقطوعة

معاتباً زمانه قائلاً (ابن عبد ربه، 2003م): (مجزوء الكامل)

يا دهر مالي أطيباً

ك وأنت غير موت

كذرت صفو حياتي

في المجد للغايات؟!

جرعتني غصصاً بها

أين الذين تسابفوا

7. الحنين إلى الروح المشرقية

لقد حنَّ ابن عبد ربه إلى أشياء كثيرة، فحنَّ إلى المرأة وإلى مرحلة الشباب وإلى الحرب وغيرها، كما رأينا وهي مضامين نجدها عند كثير من الشعراء في دواوينهم، ولكني قد وجدت نوعاً جديداً للحنين عند ابن عبد ربه الأندلسي وأسميته "الحنين إلى الروح المشرقية" وليس أدل على هذا من تأليف ابن عبد ربه لكتاب "العقد الفريد"، إذ لا يخفى مضمونه على من اطلع عليه، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فقد وجدت من خلال استقرائي لديوانه أن آخر بيت في معظم قصائده كان ينتهي ببيت لشاعر مشرق، بحيث تكون القصيدة على البحر والوزن والروري نفسه، انه إذن (حنين موضوعي حق) إن جاز التعبير عن حنينه لتلك المربع، فقد وضع كتاباً في أدب المشاركة يحوي أشعاراً تتضمن معاني الحنين وألفاظه، فهو بهذا العمل يعكس حنينه إلى المشرق وأدب المشرق ومعاني المشرقيين.

وقد عدَّ عبد الله التتقان ابن عبد ربه شخصية تعاني من انشطار الذات على حد تعبيره فقال: "إنَّ شخصية ابن عبد ربه إذا ما أخضعناها لحكم عقلي نجدها قد عانت من انشطار الذات، إذ توزعت بين حبه لعلم المشاركة وحبه لبلاده وشعوره حاجتها للفكر المشرقي، وهذا الانشطار جعله بين أمرين: رفض مشرقى لعمله (كتاب العقد) ممثلاً في موقف (الصاحب بن العباد)، وقبول أندلسي، وقد نشأت فكرة وضعه للكتاب عن حاجة اجتماعية فكرية ذابت أمامها ذات المفكر، خدمة لبلاده التي هي في ميسس الحاجة لتقافة المشاركة في هذه المرحلة" (التتقان، 2002م)، على أن ابن عبد ربه لم يعبأ بما قاله الصاحب بن عباد عن كتابه (جبور، 1987م).

ولعل أروع ما في شعر ابن عبد ربه مما يتصل بموضوعنا هذا قوله حين لم يستطع الذهاب في رحلة إلى المشرق (ابن

عبد ربه، 2003م): وهما من أشهر شعره (البيسط)

الجسْمُ في بَلَدٍ والروحُ في بَلَدٍ

يا وَحْشَةَ الرُّوحِ بَلِّ يا غُرْبَةَ الجَسَدِ

إِنْ تَبَكَ عَيْنَاكَ يا مَنْ كَلَفْتُ بِهِ

مِنْ رَحْمَةٍ فَهُمَا سَهْمَاكَ في كَيْدِي

أما تضميناته فمنها تضمينه بيت عدي بن الرغلاء الغساني

في قوله (ابن عبد ربه، 2003م): (الخفيف)

أَنْتَ دائِي وفي يَدَيْكَ دَوَائِي

يا شِفَائِي مِنَ الجَوَى وَيَلَائِي

إِنَّ قَلْبِي يُحِبُّ مَنْ لا أَسْمِي

في عَنَاءٍ، أَعْظَمُ بِهِ مِنْ عَنَاءِ

كَيْفَ لا، كَيْفَ أَنْ الدَّوَ بَعْيشِ

مات صبري به ومات عزائي

أيها اللاتيمون ماذا عليكم

أَنْ تَعيشُوا وَأَنْ أَحيا بِدَائِي

لَيْسَ مَنْ ماتَ فَاسْتَرَاحَ بِمَيِّتِ

إنما الميِّتُ مَيِّتُ الأَحْيَاءِ

وهو اختيار بلا شك يدل على ذوق رفيع لشاعر ذائقة.

8. الحنين إلى العود والطرب والغناء، وقد وردت في أربع (4)

مقطوعات (ابن عبد ربه، 2003م).

ومنها هذه الأبيات التي شكّل لنا فيها ابن عبد ربه صوراً

شعرية متكاملة لمشاهد البساتين ومجالس الملوك وميادين

العساكر ومجلس العاشق الملتاع في أبيات تجمع كل هذا

ليقول (ابن عبد ربه، 2003م): (الوافر)

يا مَجْلِساً أَيْنَعَتْ مِنْهُ أَزَاهِرُهُ

يُنْسِيكَ أَوْ لَه في الحُسْنِ آخِرُهُ

كأنما العودَ فيما بيننا مَلِكُ

يَمْشِي الهُوَيْتِي، وتتلوه عساكرُهُ

وَحَنَّ مِنْ بَيْننا مَثْناءً وَمَثْلَةٌ

تُبْدي عَنِ الصَّبِّ ما تُخْفِي ضَمَائِرُهُ

9. الحنين إلى الخمرة ومجلس الشرب: حنَّ ابن عبد ربه إلى

الخمرة ومجلس الشرب، فتغزل بها وبحاملتها وبالكأس الذي

توضع فيه، وقد ورد في ثلاثة مواضع (ابن عبد ربه،

2003م). فما هو تهيجه الكأس ومن يحملها فيتغزل قائلاً

(ابن عبد ربه، 2003م): (البيسط)

أَهْدَتْ إِلَيْكَ حَمِيَّاهَا بِكَاسِيْنِ

شَمْسٌ تَدْبِرُهَا بِالْكَفِّ وَالْعَيْنِ

يَسْعَى بِتِلْكَ وَهْذي شَادِنٌ عَنجِ

كَأَنَّهُ قَمَرٌ يَسْعَى بِنَجْمِيْنِ

وفي هذا الشأن يقول الدكتور إحسان عباس عن ابن عبد

في وجودها وفعاليتها فهي تومئ إلى تحريك وجدان الإنسان وتحقيق الاستكمال الوطني الذي غايته الولاء للوطن. وبذلك قد أكون فتحت باباً جديدة في دراسة الجانب الوطني لشعر ابن عبد ربه الأندلسي، ومعالجة نصوصه الشعرية معالجة أدبية جديدة، تتناسب رؤية العصر الحديث وروح المعاصرة. فقد خلص البحث إلى أنّ ألفاظ الحنين ومضامينه التي تمثلت بـ (الحنين إلى الأبناء، الحنين إلى المرأة، الحنين إلى مرحلة الشباب، الحنين إلى الأطلال، الحنين إلى الحرب، الحنين إلى الروح المشرقية، والحنين إلى الخمر، والحنين إلى الطرب). قد شكّلت حضوراً لافتاً في ديوان الشاعر ابن عبد ربه الأندلسي صاحب العقد الفريد حتى كوّنت مجموعها سمة أسلوبية ولازمة تعبيرية معنوية واضحة في شعره.

الخاتمة

هذه دراسة أدبية إنسانية، تحليلية لظاهرة الحنين ومظاهره ومثيراته في شعر ابن عبد ربه الأندلسي، فمن خلال حديثي عرضت لمفهوم الغربة والحنين والتغني والمناجاة لمن يُحَنُّ إليه من وجهة النظر الأدبية، من خلال النصوص الشعرية لابن عبد ربه الأندلسي تلك النصوص التي ما زالت حبيسة في الديوان، فاقدة حسّها الفني المرهف وأبعادها الأدبية والشعرية، فلم تتحسّسها الأمة من هذا الجانب الوظيفي الذي هو الأساس

المصادر والمراجع

- الشايب، أ. (1988)، الأسلوب (دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية) مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الثامنة، ص112.
- شعر يزيد بن الطثرية، ي. (1973)، جمع حاتم الضامن، ط1، بغداد، ص40.
- الشكعة، م. (1983) الأدب الأندلسي، موضوعاته وفنونه، دار العلم للملايين.
- عبّاس، إ. (2000)، تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة)، دار الشروق، عمّان، ص166، 178، 184، ومقدمة الكتاب.
- ابن عبد ربه، ش. (1987)، العقد الفريد، دار الكتب العلمية، بيروت (المقدمة).
- جُمع شعر ابن عبد ربه تحت عنوان (ديوان ابن عبد ربه الأندلسي)، (2003) تحقيق محمد رضوان الداية، وأحدث طبعة جمع وتحقيق محمد أديب عبد الواحد جمران، مكتبة العيكان (الديوان من ص1-آخر الديوان).
- عياد، ش. (1998)، مدخل إلى علم الأسلوب، ط4 أصدقاء الكتاب للنشر والتوزيع، الحيزة، ص54.
- فضل، ص. (2002) إنتاج الدلالة، ط2، مركز الحضارة العربية، القاهرة، ص364.
- فروخ، ع. (1992) تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، ص364، ص26.
- فهيمي، م. (1982) الحنين والغربة في الشعر العربي، معهد البحوث والدراسات العربية، ص97.
- القيسي، ن. (1970) الحنين والغربة في الشعر العربي، معهد البحوث والدراسات العربية، ص137.
- مطلوب، أ. (2002)، في الشعر العربي الحديث، ط1، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ص127.

- إسماعيل، ع. (1987)، الأدب وفنونه (دراسة نقدية)، ط3، دار الفكر العربي، مطبعة السعادة، ص384.
- إسماعيل، ع. (1986) الأسس الجمالية في النقد العربي، (عرض تفسير ومقارنة) ط3، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، ص30-31.
- النّفقان، ع. (2002)م، بحوث ودراسات أندلسية، مؤسسة اليمامة، الرياض، ص27.
- جبّور، ج. (1987)، ابن عبد ربه وعقده، ط2، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ص96.
- جونسون، ب. (1982) دراسة يوري لوتمان البنيوية للشعر ترجمة، سيد البحراوي، الفكر العربي (مجلة)، العدد 25، ص147.
- الحموي، ش. (1993) معجم الأديب / إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1993م. ج2/67.
- الحميدي، أ. (1966) جذوة المقتبس في ذكر ولادة الأندلس، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، 94.
- حور، م. (1989)، الحنين إلى الوطن في الأدب العربي حتى نهاية العصر الأموي، دار القلم، ص(218-211-225).
- ابن خلكان، أ. (1948)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، م1/110.
- الداية، م. (2000) في الأدب الأندلسي، دار الفكر، بيروت، ص300.
- ديوان جميل بئينة، ج. (1969)، عالم الكتب، بيروت، ص174-175.
- الرمخشري، ج. (2003)، أساس البلاغة، المكتبة العصرية، صيدا، ص145.

- المقري، ت. (1990)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، دار صادر بيروت.
- الملائكة، ن. (1983)، قضايا الشعر المعاصر، ط7، دار العلم للملايين، بيروت، ص237، 325 - 326. ج5/595.
- ابن منظور، ج. (1994)، لسان العرب، دار الفكر بيروت، مادة (حنن)، (غرب).
- مولينيه، ج. (1999)، الأسلوبية، ترجمه وقدم له بسام بركة، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ص20.
- والي، ف. (1996) الفتن والنكبات الخاصة وأثرها في الشعر الأندلسي، دار الأندلس، ص56.
- الورقي، س. (1984) لغة الشعر الحديث، دار النهضة، بيروت، ص69.
- ويلك، ر.، و.، (1987)، نظرية الأدب، ترجمة محي الدين صبحي، مراجعة حسام الخطيب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت. ص179.

The Phenomenon of Yearning in the Poetry of Ibn Abd Rabh Al-Andalusi

*Amal Al-Omary**

ABSTRACT

This research seeks to detect the phenomenon of nostalgia in the poetry of Ibn Abd Rabbo Andalusian (d. 328 AH), that he was born and grew up and lived in Andalusia "Ouhn" to the east and the lives of easterners! Two steps: first, stand on the poet's life for the detection of the most prominent influences that helped to highlight this phenomenon when Ibn Abd Rabbo Andalusian, then the study has moved to address the words of nostalgia in the poetry of Ibn Abd Rabbo and one stood on the meaning of terminological and linguistic nostalgia dispersed between nostalgia and alienation, alienation and then offered examples survey of poetry of Ibn Abd Rabbo "Andalusian Mostajalliah" this phenomenon through his poetry.

The research concludes that the words of yearning and its implications as: (the yearning for sons, the yearning for the woman, the youth, the ancient places, the war, the oriental spirit, the wine and the yearning for the music and ecstasy) have taken a good presence in the poetical works, a thing, that made a prominent stylistic feature and obvious expressive quality in Ibn Abd Rabh Poetry.

Keywords: yearning The Andalusian, Ibn Abd rabbo Rabbo.

* Ajloun University College, Al-Balqa Applied University, Jordan. Received on 1/3/2015 and Accepted for Publication on 24/5/2015.